عِلْم البَدِيع

obeikandl.com

obeikandl.com

علم البديع

البديعُ لغةً: المُخترَعُ علَىٰ غيرِ مثالٍ سابقٍ.

واصطلاحًا: هُوَ علمٌ يُعرَفُ بِه الوَجْدَةُ الَّتي وُضِعَتْ لتزيينِ الكَلامِ وتَنْميقِه، وتُزيدُهُ حُسْنًا وحَلاوَةً وطَلاوَةً وإشْراقًا، وكَمَا أنَّ تَحْسينَ الكَلامِ بِعلْمَي المَعَاني والبَيَان ذَاتيّ، وبِعلْمِ البَديعِ شَكْليّ، فَهُوَ يَكْسُو الكَلامَ بِهَذَا رَوْنَقًا ونَضَارَةً بَعْدَ مُطَابَقَتِه لِمُقْتَضَىٰ حَالِ السَّامعينَ ووُضُوحِ المُرَاد.

ووُجُوهُ تَحْسينُ الكَلامِ الَّتي يَبْحَثُ فيهَا عِلْمُ البَديعِ قِسْمَان: قِسْمٌ يَرْجِعُ إلَىٰ المَعْنَىٰ، وقِسْمٌ يَرْجِعُ إلَىٰ اللَّفْظ.

فَهُوَ عِلْمُ المُحَسِّناتِ اللَّفْظيَّةِ والمُحَسِّنَاتِ المَعْنَويَّة.

obeikandl.com

الْمُحَسِّنَاتُ اللَّفْظِيَّةُ(١)

الْجِنَاسُ

حَقِيقَتُهُ: هُوَ تَشَابُهُ اللَّفْظَانِ فِي النُّطْقِ، وَيَخْتَلِفَانِ فِي الْمَعْنَىٰ.

وَهُوَ نَوْعَانِ:

١ – جِنَاسٌ تَامٌّ.

٢ – جِنَاسٌ نَاقِصٌ.

٣ – جِنَاسُ الاشْتِقَاق.

٤ – الْجِنَاسُ الْمُصَحَّف.

١ - الْجِنَاسُ التَّامُ:

وَهُوَ أَنْ يَتَّفِقَ اللَّفْظَان فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ:

١ – الْحُرُوف

٢ – الشَّكْل.

٣ – الْعَدَد.

٤ – التَّرْتِيب.

كَقَوْلِه – تَعَالَىٰ –: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [الرُّوم: ٥٥].

فَقَدْ ذُكِرَت السَّاعَةُ مَرَّتَيْنِ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنَىً، فَالسَّاعَةُ الأُولَىٰ الْقِيَامَةُ، وَالثَّانِيَةُ: الْجُزْءُ مِنَ الزَّمَنِ.

---

(١) المحسنات اللفظية: لا تقع موقعها، إلا إذا طلبها المعنى، ومن ها هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأحلاه وأحق بالحسن وأولاه» ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهل لطلبه؛ لأن المعنى لا تدين للألفاظ في كل موضع، ولا تنقاد لها في كل حين.

٢ - الْجِنَاسُ النَّاقِصُ:

هُوَ مَا اخْتُلِفَ لَفْظًا فِي وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أُمُورٍ:

١ - عَدَدُ الْحُرُوفِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠].

فَعَدَدُ حُرُوفِ الْمَسَاقِ زَائِدٌ عَلَىٰ عَدَدِ حُرُوفِ كَلِمَةِ السَّاقِ.

٢ - أَوْ نَوْعُهَا: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩ - ١٠]، فَقَدِ اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ ﴿تَقْهَرْ - تَنْهَرْ﴾ فِي حَرْفَيِ الْقَافِ وَالنُّونِ.

٣ - أَوْ هَيْئَتُهَا: كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَهَلَّا نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ ... لَمْ يُلْقَ غَيْرَ مُنَعَّمٍ بِشَقَاءِ

وَ«نَهَاكَ» الْأُولَىٰ مَفْتُوحَةُ النُّونِ وَهِيَ فِعْلٌ، وَالثَّانِيَةُ مَضْمُومَةٌ، وَهِيَ بِمَعْنَىٰ الْعَقْلِ.

٤ - أَوْ تَرْتِيبُهَا: كَقَوْلِ ابْنِ رَوَاحَةَ:

وَتَحْمِلُهُ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا ... بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَّىٰ نُورَهُ الظُّلَمَا

وَالشَّاهِدُ مِنْهُ «الْبُرْدُ - كَالْبَدْرِ».

وَمِنَ الْجِنَاسِ جِنَاسُ الاشْتِقَاقِ، كَقَوْلِهِ - ﷺ -: «**غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»(١).

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥١٣)، وَمُسْلِمٌ (٦٧٩).

٤ - الجناس المصحف:

وَمِنَ الْجِنَاسِ - أَيْضًا - (الْجِنَاسُ الْمُصَحَّفِ)، وَهُوَ أَنْ يَتَحَدَّد اللَّفْظَانِ فِي الرَّسْمِ وَالشَّكْلِ وَالْعَدَدِ وَالتَّرْتِيبِ وَاخْتَلَفَا فِي النّقطِ فَقَطْ.

كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴿٨٠﴾** ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٧٩، ٨٠].

وَقَوْلِهِ - ﷺ -: «**بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**»(١).

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧٣٢).

obeikandl.com

السَّجْعُ

السَّجْعُ حقيقتُهُ هوَ: أنْ تتَّفِقَ الْفاصِلَتانِ فِي الْحَرْفِ الأَخِيرِ، وَالْفاصِلَةُ فِي النَّثْرِ كَالْقَافِيَةِ فِي الشِّعْرِ(١).

وَمَوْطِنُ السَّجْعِ النَّثْرُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الشِّعْرِ، كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّي:

فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ... وَالْبَرُّ فِي شُغُلٍ وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ

وَيُسَمَّى السَّجْعُ فِي الشِّعْرِ تَرْصِيعًا، وَيَنْقَسِمُ السَّجْعُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

١ - **الْمُطَرَّفُ:** وَهُوَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْفَاصِلَتَانِ أَوِ الْفَواصِلِ وَزْنًا وَاتَّفَقَتْ رويًا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَرِدَ فِي أَجْزَاءِ الْكَلامِ سَجَعَاتٌ غَيْرَ مَوْزُونَةٍ عَرُوضِيًّا، وَبِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ رَوِيها روي الْقَافِيَةِ، كَقَوْلِ أَحَدِ الْبُلَغَاءِ: «الْحُرُّ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَعَانَ كَفَى، وَإِذَا مَلَكَ عَفَا».

٢ - **الْمُرَصَّعُ:** هُوَ مَا اتَّفَقَتْ إِحْدَى الْفَقْرَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرُهَا فِي الْوَزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ، كَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ: «فَهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ».

---

(١) لا يَحْسُنُ السَّجْعُ إلاَّ إِذَا كَانَ رَصِينَ التَّرْكِيبِ، سَلِيمًا مِنَ التَّكَلُّفِ، خَالِيًا مِنَ التَّكْرَارِ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَأَمَّا السَّجْعُ الطَّوِيلُ الْمُتَكَلَّفُ فَبَارِدٌ ثَقِيلٌ مَرْفُوضٌ كَلَيْلِ الصَّدُودِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ:

رُبَّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِصُدُودٍ ... وَفِرَاقٍ مَا كَانَ فِيهِ وَدَاعُ

مُوحِشٍ كَالثَّقِيلِ تَقْذِي الْعَيْنَ ... وَتَأْبَى حَدِيثَهُ الأَسْمَاعُ

وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّافِعِيُّ: وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَجَعَلَ يَسْجَعُ فِي كَلامِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِيُّ، مَا تَدْعُونَ الْبَلاغَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: خِلا مَا كُنْتَ فِيهِ الْيَوْمَ، وَاقْصِدِ السَّجْعَ مَا تَسَاوَتْ فَقَرُهُ، وَلا بَأْسَ أَنْ تَطُولَ الْفَقْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى الأُولَى، أَمَا الْعَكْسُ فَلا يَحْسُنُ، وَالأَسْجَاعُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَسْكِينِ فَوَاصِلِهَا كَالْوَقْفِ، وَلا يَصِحُّ وَصْلُهَا، وَلا تَحْرِيكُهَا، بَلْ يَذْهَبُ حُسْنُ بِجَمَالِهَا وَحُسْنُ إِيقَاعِهَا. انْظُرْ «تَيْسِيرَ الْبَلاغَةِ» (ص١٤٦).

٣ - **الْمُتَوَازِي**: وَهُوَ مَا اتَّفَقَ فِيهِ الْفَقْرَتَانِ فِي الْكَلِمَتَيْنِ الأَخِيرَتَيْنِ، كَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ: «أَلْجَأَنِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ إِلَىٰ أَنْ أَنْتَجِعَ أَرْضَ وَاسِطٍ».

وَقَوْلِهِ: «وَأَوْدَىٰ بِي النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ، وَرَثَىٰ لِي الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ».

٤ - **الْمَشْطُورُ**: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ سَطْرٍ مِنَ الْبَيْتِ قَافِيَتَانِ مُغَايِرَتَانِ بِقَافِيَةِ الشَّطْرِ الثَّانِي، وَهَذَا الْقِسْمُ خَاصٌّ بِالشِّعْرِ، كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... لِلهِ مُرْتَغِبٌ فِي اللهِ مُرْتَقِبُ

فَالشَّطْرُ الأَوَّلُ كَمَا تَرَىٰ سَجْعُهُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَافِيَةِ الْمِيمِ، وَالشَّطْرُ الثَّانِي سَجْعُهُ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَافِيَةِ الْبَاءِ.

أَشْرَفُ السَّجْعِ:

١ - **مَا تَسَاوَتْ فَقَرَاتُهُ**: أَحْسَنُ السَّجْعِ وَأَشْرَفُهُ وَأَعْلاهُ مَنْزِلَةً مَا تَسَاوَتْ فَقَرَاتُهُ فِي عَدَدِ الْكَلِمَاتِ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)**﴾ [الضُّحَىٰ: ٩-١٠][1].

٢ - **مَا طَالَتِ الْفَقْرَةُ الثَّانِيَةُ أَكْثَرَ مِنَ الأُولَىٰ طُولاً لا يُخْرِجُهُ عَنِ الاعْتِدَالِ كَثِيراً لِئَلاَّ يَبْعُدَ عَلَى السَّامِعِ وُجُودَ الْقَافِيَةِ فَتَذْهَبُ اللَّذَّةُ وَتَنْتَفِي الْحَلاوَةُ** كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)**﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠].

---

[1] يَرَىٰ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَمِنْهُمُ الْبَاقِلانِيُّ وَابْنُ الأَثِيرِ كَرَاهَةَ إِطْلاقِ السَّجْعِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْكَلامِ يَعْتَمِدُ الصَّنْعَةَ وَقَلَّمَا يَخْلُو مِنَ التَّكَلُّفِ وَالتَّعَسُّفِ، إِلَىٰ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ سَجْعِ الْحَمَامِ وَهُوَ هَدِيرُهُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ فَوَاصِلُ أَخْذاً مِنْ قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. انْظُرْ: «عُلُومَ الْبَلاغَةِ» (ص٤٢٢).

ثُمَّ مَا طَالَتْ فَقْرَتُهُ الثَّالِثَةُ، كَقَوْلِه - تَعَالَىٰ -: ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)** ﴾ [الحاقَّة: ٣٠ - ٣٢].

وَلا يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ الْفَقْرَةُ الثَّانِيَةُ أَقْصَرُ مِنَ الأُولَىٰ؛ لأَنَّ السَّجْعَ إِذَا اسْتَوْفَىٰ أَمَدَّهُ فِي الأُولَىٰ بِطُولِهَا وَجَاءَتِ الثَّانِيَةُ أَقْصَرَ مِنْهَا، كَانَ كَالشَّيْءِ الْمَبْتُورِ الَّذِي لا يَنْتَهِي إِلَىٰ غَايَةٍ وَلا تَقِفُ عِنْدَهُ نِهَايَةٌ.

obeikandl.com

الْمُوَازَنَةُ

الْمُوَازَنَةُ حَقِيقَتُهَا: هِيَ تَسَاوِي الْفَوَاصِلِ فِي الْوَزْنِ وَالْجَرْسِ دُونَ الْحَرْفِ الأَخِيرِ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾ [الغاشية: ١٥-١٦][١].

وَقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) ﴾ [الصافات: ١١٧-١١٨][٢].

وَقَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾ [مريم: ٨١-٨٤][٣].

وَمِنَ الْمُوَازَنَةِ فِي الشِّعْرِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْعَمًا ... وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا

وَقَالَ الآخَرُ:

أَفَادَ فَسَادَ وَقَادَ فَزَادَ ... وَسَادَ فَجَادَ وَعَادَ فَأَفْضَلَ[٤]

---

(١) «مصْفُوفَةٌ، ومَبْثُوثَةٌ»: مُتَسَاوِيَانِ فِي الْوَزْنِ لا فِي التَّقْفِيَةِ؛ لأَنَّ الأَوَّلَ عَلَىٰ الْفَاءِ وَالثَّانِي عَلَىٰ التَّاءِ، وَلا عِبْرَةَ لِتَاءِ التَّأْنِيثِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي عِلْمِ الْقَوَافِي.

(٢) «الْمُسْتَبِينُ وَالْمُسْتَقِيمُ» مُوَازَنَةٌ لأَنَّهُمَا تَسَاوَيَا فِي الْوَزْنِ دُونَ التَّقْفِيَةِ.

(٣) الْمُوَازَنَةُ هُنَا بَيْنَ «عِزًّا - ضِدًّا»، وبَيْنَ: «أَزًّا - عَدًّا» فَقَدْ جَاءَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَىٰ وَزْنٍ وَاحِدٍ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَحْرُفُ التَّقْفِيَةِ أَوِ الْمَقَاطِعِ وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

(٤) قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ فِي الْمُوَازَنَةِ: هِيَ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُ الْفَوَاصِلِ فِي الْكَلامِ الْمَنْقُولِ مُتَسَاوِيَةً فِي الْوَزْنِ، وَأَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْبَيْتِ الشِّعْرِيِّ وَعَجُزُهُ مُتَسَاوِي الأَلْفَاظِ وَزْنًا، وَلِلْكَلامِ بِذَلِكَ حَلاوَةٌ وَرَوْنَقًا، وَسَبَبُهُ الاعْتِدَالُ؛ لأَنَّهُ مَطْلُوبٌ فِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ، وَإِذَا كَانَتْ مَقَاطِعُ الْكَلامِ مُعْتَدِلَةً وَقَعَتْ فِي النَّفْسِ مَوْقِعَ =

التَّوْرِيةُ

لُغَةً: السِّتْرُ وَالتَّغْطِيَة، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ**﴾ [الأَعْرَافُ: ٢٦]، أَيْ: يَسْتُرُهَا.

وَاصْطِلاحًا: أَنْ يَذْكُرَ الْمُتَكَلِّمُ لَفْظًا لَهُ مَعْنَيَانِ أَحَدُهُمَا قَرِيبٌ، وَدَلالَةُ اللَّفْظِ عَلَيْهِ ظَاهِرَةٌ، وَالآخَرُ بَعِيدٌ وَدَلالَةُ اللَّفْظَةِ عَلَيْهِ خَفِيَّةٌ.

وَهَذَا الَّذِي يُرِيدُهُ إِلاَّ أَنَّهُ يَسْتُرُهُ وَيُغَطِّيهِ بِالْقَرِيبِ الْمُتَبَادَرِ مِنْ لَفْظِهِ وَتُسَمَّىٰ التَّوْرِيَةُ «إِيهَامًا»[١].

كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أُنَاسٍ ... لِقَاءَ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الأَدِيبُ

وَرُبَّ شِعْرٍ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ ... وَلَوْ وَافَىٰ بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ

فَأَنْتَ تَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ (حَبِيبٍ) لَهَا مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا الْمَحْبُوبُ، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ الْقَرِيبُ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَىٰ الذِّهْنِ بِسَبَبِ التَّمْهِيدِ لَهُ بِكَلِمَةِ «بَغِيضٍ»،

= الاسْتِحْسَانِ، وَهَذَا لا مِرَاءَ فِيهِ لِوُضُوحِهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْكَلامِ أَخُو السَّجْعِ فِي الْمُعَادَلَةِ دُونَ الْمُمَاثَلَةِ؛ لأَنَّ فِي السَّجْعِ اعْتِدَالاً وَزِيَادَةً عَلَىٰ الاعْتِدَالِ، هِيَ تُمَاثِلُ الْفَوَاصِلَ لِوُرُودِهَا عَلَىٰ حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَأَمَّا الْمُوَازَنَةُ فَفِيهَا الاعْتِدَالُ الْمُوحَّدُ وَلا تَمَاثُلَ فِي فَوَاصِلِهَا، فَيُقَالُ: إِذَنْ كُلُّ سَجْعٍ مُوَازَنَةٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مُوَازَنَةٍ سَجْعًا.

(١) فَنُّ التَّوْرِيَةِ بَرَعَ فِيهِ شُعَرَاءُ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ مِنَ الْهِجْرَةِ وَأَتَوْا فِيهِ بِالْعَجِيبِ الرَّائِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ صَفَاءِ الطَّبْعِ وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ اللَّعِبِ بِأَسَالِيبِ الْكَلامِ، كَمَا قَالَ عَلِيٌّ الْجَارِمُ، وَقَالَ زَكِيُّ الدِّينِ بْنُ أَبِي الإِصْبَعِ، كَمَا فِي كِتَابِهِ «تَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ»: «التَّوْرِيَةُ، وَتُسَمَّىٰ التَّوْجِيهَ، هِيَ أَنْ يَكُونَ الْكَلامُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، فَيَسْتَعْمِلُ الْمُتَكَلِّمُ أَحَدَ احْتِمَالَيْهَا وَيُهْمِلُ الآخَرَ، وَمُرَادُهُ مَا أَهْمَلَهُ لا مَا اسْتَعْمَلَهُ».

وَالثَّانِي: اسْمُ أَبِي تَمَّام الشَّاعِرُ، وَهُوَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ بَعِيدٌ، وَقَدْ أَرَادَهُ الشَّاعِرُ، وَلَكِنَّهُ تَلَطَّفَ فَوَرَّىٰ عَنْهُ، وَسَتَرَهُ بِالْمَعْنَىٰ الْقَرِيبِ.

الْمِثَالُ الثَّانِي:

كَانَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كَثِيرُ الأَسْفَارِ مَعْرُوفًا، فَلَمَّا هَاجَرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَعَلَ مَنْ يَعْرِفُهُ يَسْأَلُهُ: مَنْ هَذَا مَعَكَ؟، فَيُجِيبُ: «**هَادٍ يَهْدِينِي الطَّرِيقَ**»(١).

فَيَحْسَبُونَهُ دَلِيلاً يُرَافِقُهُ؛ كَيْ لا يَضِلَّ الطَّرِيقَ، وَهُوَ يُرِيدُ الْمَعْنَىٰ الْبَعِيدَ ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]، فَفِي كُلٍّ مِنْ كَلِمَةِ «هَادٍ»، وَ«الطَّرِيقِ» تَوْرِيَةٌ وَأَلْغَازٌ.

وَمِنَ التَّوْرِيَةِ: قَوْلُ بَدْرِ الدِّينِ الحمالي، وقَدْ طَلَبَ نَوَالاً مِنْ غَيْرِهِ لَكِنْ بِأُسْلُوبٍ جَمِيلٍ:

جَدِّدُوا لِلنَّسْجَعِ بِالْمَدِيـ ... ـحِ عَلَىٰ عُلاكُمُ سَرْمَدَا
فَالطَّيْرُ أَحْسَنُ مَا تَعْزِ ... فُ عِنْدَمَا يَقَعُ النَّدَىٰ (٢)

فَالتَّوْرِيَةُ هُنَا فِي كَلِمَةِ «النَّدَىٰ» فَمَعْنَاهَا الْقَرِيبُ الظَّاهِرُ غَيْرُ الْمُرَادِ هُوَ مَا يَسْقُطُ آخِرُ اللَّيْلِ مِنْ بَلَلٍ وَمَطَرٍ خَفِيفٍ، يَدُلُّكَ التَّمْهِيدُ لَهُ بِذِكْرِ الطَّيْرِ وَالتَّغْرِيدِ وَالْوُقُوعِ، وَمَعْنَاهَا الْبَعِيدُ هُوَ الْجُودُ وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّاعِرُ.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٩١١).

٢- مِنْ مَعَانِي النَّدَىٰ: الْجُودُ، وَمَا يَسْقُطُ آخِرَ اللَّيْلِ مِنْ بَلَلٍ وَمَطَرٍ خَفِيفٍ.

الالتفاتُ

حَقِيقَةُ **الالْتِفَاتِ**: هُوَ أَنْ يُحوَّل اتِّجَاهُ التَّعْبِيرِ مِنْ أُسْلُوبِ التَّكَلُّمِ أَوِ الْخِطَابِ أَوِ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ أُسْلُوبٍ آخَرَ(١).

كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾** ﴾ [يس: ٢٢].

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ أُسْلُوبَ التَّكَلُّمِ كَانَ يَقْتَضِيهِ أَنْ يَقُولَ: «وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ»، لِيَكُونَ الْكُلُّ بِنَسَقٍ وَاحِدٍ: نَسَقُ الْمُتَكَلِّمِ لَكِنَّهُ بَعْدَمَا تَحَدَّثَ مِنْ نَفْسِهِ التَفَتَ إِلَىٰ قَوْمِهِ فَخَاطَبَهُمْ مُحَذِّرًا ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾.

أَقْسَامُ الالْتِفَاتِ:

١ - انْصِرَافٌ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الخِطَابِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾** ﴾ [يس: ٢٢].

٢ - انْصِرَافٌ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾** ﴾ [الْكَوْثَرُ: ١ - ٢].

٣ - انْصِرَافٌ عَنِ الْخِطَابِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ كَعِتَابِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾** ﴾ [الْفَجْرُ: ٢٤].

٤ - انْصِرَافٌ عَنِ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾ [يُونُس: ٢٢]، بَدَلَ مِنْ «بِكُمْ».

---

(١) وَيُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الالْتِفَاتُ فِي جُمْلَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ لا فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

٥ - انْصِرَافٌ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ [الفاتحة]، فَذَكَرَ إِيَّاكَ بَدَلاً عَنْ « إِيَّاهُ ».

٦ - انْصِرَافٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ: كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ** ﴾ [فاطر: ٩]، بَدَلاً مِنْ « فَسَاقَهُ ».

مِنْ فَوَائِدِ الالْتِفَاتِ:

فَوَائِدُ الالْتِفَاتِ كَثِيرَةٌ، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا نُقِلَ مِنْ أُسْلُوبٍ لآخَرَ كَانَ أَبْعَثَ لِنَشَاطِ السَّامِعِ وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ إِصْغَائِهِ وَجَذْبِ انْتِبَاهِهِ؛ لأَنَّ النَّغَمَ الْوَاحِدَ مَمْلُولٌ، كَالْحَدِيثِ الْمُعَادِ، وَقَدِيمًا قَالُوا: ﴿ **لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ** ﴾ [الْبَقَرَة: ٦١]، لَكِنْ لِلالْتِفَاتِ مَوَاقِعُ لَطِيفَةٌ وَاعْتِبَارَاتٌ شَرِيفَةٌ جَدِيدَةٌ بِالْبَحْثِ عَنْهَا وَالالْتِفَاتِ إِلَيْهَا، فَمِنْهَا:

١ - قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِي شَأْنِ الإِعْرَاضِ عَنِ الأَعْمَىٰ، وَالتَّشَاغُلِ بِزُعَمَاءِ قُرَيْشٍ، لِيَقْبَلُوا الإِيمَانَ: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦)** ﴾ [عَبَس: ١ - ٦].

هُنَا الالْتِفَاتُ مِنْ أُسْلُوبِ الْغَيْبَةِ ﴿ **عَبَسَ** ﴾ إِلَىٰ الْخِطَابِ ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ** ﴾ ، ﴿ **فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ** ﴾، وَلَوْلا الالْتِفَاتُ لَقِيلَ: « وَمَا يُدْرِيهِ ».

تَأَمَّلْ تَجِدْ أَنَّ تَنْشِيطَ السَّامِعِ قَدْ أَخَذَ مَكَانَهُ إِلَىٰ جَنَابِ سِرٍّ يَكْمُنُ فِي لُطْفِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ بِالرَّسُولِ الْعَظِيمِ - ﷺ - فِي مَوْضُوعِ عِتَابٍ، لَوْ فَاجَأَهُ بِهِ مِنَ الأَوَّلِ بِأُسْلُوبِ الْخِطَابِ لانْصَدَعَ فُؤَادُهُ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ - ﷺ - أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللهِ، وَأَشَدُّ الْخَلْقِ خَشْيَةً للهِ، فَكَانَ بَدْءُ الْعِتَابِ فِي صُورَةِ الْحِكَايَةِ عَنْ شَخْصٍ غَائِبٍ.

وَمَا كَانَ الْخِطَابُ بِالْعِتَابِ إِلاَّ بَعْدَ هَذَا التَّعْرِيضِ الْكَرِيمِ وَالإِيقَاظِ اللَّطِيفِ.

٢ - قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي قَبُولِ الْفِدَاءِ عَنْ أَسْرَى بَدْرٍ: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** ﴾ [الأَنْفَالُ: ٦٧].

تَجِدُ هُنَا الْتِفَاتًا مِنَ الْغَيْبَةِ ﴿ **لِنَبِيٍّ** ﴾ لأَنَّ الاسْمَ الظَّاهِرَ فِي حُكْمِ الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَائِبِ، وَالْتَفَتَ عَنْهُ إِلَىٰ الْخِطَابِ ﴿ **تُرِيدُونَ** ﴾ وَلَمْ يُصَدِّرِ الْعِتَابُ بِالْخِطَابِ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ الْخِطَابِ جَمَعَهُ مَعَ غَيْرِهِ ﴿ **تُرِيدُونَ** ﴾ لِيُخْفِ وَقْعَ الْمُؤَاخَذَةِ.

٣ - قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - مُعَاتِبًا نَبِيَّهُ - ﷺ -: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ** ﴾ [التَّوْبَةُ: ٤٣].

تَأَمَّلْ، هُنَا لا تَجِد الْتِفَاتًا، بَلْ تَجِدْ صِيغَةَ الْخِطَابِ بِالْعِتَابِ مِنَ الْبَدْءِ، لَكِنَّهُ مَسْبُوقٌ بِالْعَفْوِ، وَمَقْرُونٌ بِالْمُلاطَفَةِ فِي صُورَةِ الاسْتِفْهَامِ.

٤ - قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾ [يُونُس: ٢٢، ٢٣].

تَأَمَّلْ بَلاغَةَ الالْتِفَاتِ هُنَا وَجَمَالَ الأُسْلُوبِ، خَاطَبَهُمْ أَوَّلُ رُكُوبِ الْفُلْكِ ﴿ **كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ** ﴾؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَبْعُدُوا، فَلَمَّا أَقْلَعَتْ بِهِمُ الْفُلْكُ وَابْتَعَدَتْ فِي الْبَحْرِ الْتَفَتَ عَنْهُمْ مُتَحَدِّثًا بِضَمِيرِ الْغَائِبِ ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِم** ﴾، ﴿ **وَفَرِحُوا** ﴾، ﴿ **وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ** ﴾، ﴿ **وَظَنُّوا** ﴾، ﴿ **دَعَوُا** ﴾، ثُمَّ لَمَّا أَنْجَاهُمْ مِنَ الْبَحْرِ، وَوَطَأَتْ أَقْدَامُهُمُ الْبَرَّ، ﴿ **إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ ثَانِيًا وَخَاطَبَهُمْ بِعُقُوبَةِ جُرْمِهِمْ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم** ﴾[١].

---

١) انظر «تيسير البلاغة» (ص١٥٩)، بتصرف يسير.

المُشَاكَلَةُ

المُشَاكَلَةُ: هِيَ فِي اللُّغَةِ الْمُمَاثَلَةُ.

وَاصْطِلاحًا: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظِ غَيْرِهِ؛ لِوُقُوعِهِ فِي صُحْبَتِهِ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشُّورَىٰ: ٤٠].

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ اللَّفْظَ يُشَاكِلُ اللَّفْظَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَىٰ مُخْتَلِفٌ، فَإِنَّ السَّيِّئَةَ الثَّانِيَةَ لَيْسَتْ بِسَيِّئَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مَجَازَةٌ عَلَىٰ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٤]، أَيْ: فَعَاقِبُوهُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا الْمُمَاثَلَةَ فِي الْعُقُوبَةِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ[١]، وَكَذَلِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

---

(١) أُحِبُّ أَنْ أُنَبِّهَ إِلَىٰ خَطَأٍ يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْبَلَاغِيِّينَ، إِذْ يَذْكُرُونَ آيَةَ الْمَكْرِ أَوِ الْمُخَادَعَةِ أَوِ الاسْتِهْزَاءِ فِي بَابِ الْمُشَاكَلَةِ، وَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِالْمَكْرِ أَوِ الْمُخَادَعَةِ أَوِ الاسْتِهْزَاءِ وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ لِلْمُشَاكَلَةِ لَا أَقَلَّ وَلَا أَكْثَرَ، وَهَذَا فِيهِ تَعْطِيلُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ.

فَهُمْ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ الْمَكْرِ أَيْ: أَخَذَهُمْ بِمَكْرِهِمْ، فَجَعَلَ لَفْظَةَ (مَكْرٍ) مَوْضِعَ أَخْذِهِمْ لِأَجْلِ الْمُشَاكَلَةِ لِأَنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِالْمَكْرِ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ، وَلَابُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ صِفَةِ الْمَكْرِ للهِ، فَإِنَّ الْمَكْرَ عَلَىٰ مَنْ يَمْكُرُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الَّتِي لَا يُوصَفُ بِهَا وَصْفًا مُطْلَقًا، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النَّمْل: ٥٠].

وَقَالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ واللَّهُ خيرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤].

وَفِي « سنن التِّرْمِذِيِّ » (٣٨١٦)، وأبي دَاوُدَ (١٥١٠)، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي « صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُد » (١٣٣٧)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ – ﷺ – يَدْعُو: « رَبِّ أَعِنِّي، وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي، وَلا تَمْكُرْ عَلَيَّ ».

وَهَذَا إِثْبَاتُ المَكْرِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ فِي « التَّدْمُرِيَّة » (ص٢٦): « وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ (يَعْنِي: اللهَ) بِالمَكْرِ وَالْكَيْدِ، كَمَا وَصَفَ عَبْدَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٣٠]، وَقَالَ: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾ [الطَّارق : ١٥، ١٦]، وَلَيْسَ المَكْرُ كَالمَكْرِ، وَلا الْكَيْدُ كَالكَيْدِ ».

وَسُئِلَ الْعَلاَّمَةُ بْنُ عُثَيْمِين – رَحِمَهُ اللهُ – كَمَا فِي « المَجْمُوعِ الثَّمِين » (٢ / ٦٥)، هَلْ يُوصَفُ اللهُ بِالمَكْرِ؟ وَهَلْ يُسَمَّىٰ بِه؟ فَأَجَابَ: « لا يُوصَفُ اللهُ – تَعَالَىٰ – بِالمَكْرِ إِلاَّ مُقَيَّدًا، فَلا يُوصَفُ اللهُ – تَعَالَىٰ – بِهِ وَصْفًا مُطْلَقًا؛ قَالَ اللهُ – تَعَالَىٰ – : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف : ٩٩]، فَفِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ للهِ مَكْرًا، وَالمَكْرُ هُوَ التَّوَصُّلُ إِلَىٰ إِيقَاعِ الخَصْمِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ، وَمِنْهُ جَاءَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ « الحَرْبُ خُدْعَة »، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُوصَفُ اللهُ بِالمَكْرِ مَعَ أَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ مَذْمُومٌ؟ قِيلَ: إِنَّ المَكْرَ فِي مَحَلِّهِ مَحْمُودٌ يَدُلُّ عَلَىٰ قُوَّةِ الماكِرِ، وَأَنَّهُ غَلَبَ خَصْمَهُ، وَلِذَلِكَ لا يُوصَفُ اللهُ بِهِ عَلَىٰ الإِطْلاقِ، فَلا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ إِنَّ اللهَ مَاكِرٌ، وَإِنَّمَا تَذْكُرُ هذه الصِّفَةَ فِي مَقَامٍ يَكُونُ مَدْحًا؛ مِثْلَ قَوْلِه – تَعَالَىٰ – : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾. وَقَوْلِه – تَعَالَىٰ – : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾ [النَّمْل : ٥٠]، وَمِثْلَ قَوْلِه – تَعَالَىٰ – : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ ، وَلا تُنْفَىٰ عَنْهُ هَذِهِ الصِّفَةُ عَلَىٰ الإِطْلاقِ، بَلْ إِنَّهَا فِي المَقَامِ الَّتِي تَكُونُ مَدْحًا يُوصَفُ بِهَا، وَفِي المَقَامِ الَّتِي لا تَكُونُ مَدْحًا لا يُوصَفُ بِهَا، وَكَذَلِكَ لا يُسَمَّىٰ اللهُ بِه؛ فَلا يُقَالُ: إِنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ المَاكِرَ. وَالمَكْرُ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّة؛ لأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ – » اهـ.

٢ – وَمِنْ أَخْطَاءِ بَعْضِ الْبَلاغِيِّينَ – أَيْضًا – أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ هُوَ أَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – سُمِّيَ الْعِقَابُ بِاسْمِ الذَّنْبِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ﴿ خَادِعُهُمْ ﴾ لِلْمُشَاكَلَةِ اللَّفْظِيَّة، فَإِنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – لا يُوصَفُ بِالخِدَاعِ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَة أَنَّ الخِدَاعَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – الْفِعْلِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَلَكِنَّهُ لا يُوصَفُ بِهَا عَلَىٰ الإِطْلاقِ إِنَّمَا يُوصَفُ بِهَا حِينَ تَكُونُ مَدْحًا.

وَالدَّلِيلُ مِنَ الْكِتَاب: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النِّسَاء : ١٤٢].

الدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ مَاجَةَ (٢٠٢٦) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ صَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي « إِرْوَاء

= الْغَلِيلِ» (٢١١٧) مِنْ حَدِيثِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ - رضي الله عنه - أَنَّ أُمَّ كلثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ كَانَتْ عِنْدَهُ، فَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ حَامِلٌ: طَيِّبْ نَفْسِي بِتَطْلِيقَةٍ. فَطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَرَجَعَ وَقَدْ وَضَعَتْ، فَقَالَ: مَا لَهَا خَدَعَتْنِي خَدَعَهَا اللهُ؟! ثُمَّ أَتَىٰ النَّبِيَّ - ﷺ -، فَقَالَ: «سَبَقَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، اخْطُبْهَا إِلَىٰ نَفْسِهَا».

وَسُئِلَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ - رَحِمَهُ اللهُ - كَمَا فِي «الْمَجْمُوعِ الثَّمِينِ» (٢/٦٦): هَلْ يُوصَفُ اللهُ بِالْخِيَانَةِ وَالْخِدَاعِ، كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَىٰ - : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؟ فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: «أَمَّا الْخِيَانَةُ فَلَا يُوصَفُ اللهُ بِهَا أَبَدًا؛ لِأَنَّهَا ذَمٌّ بِكُلِّ حَالٍ؛ إِذْ إِنَّهَا مَكْرٌ فِي مَوْضِعِ الِائْتِمَانِ، وَهُوَ مَذْمُومٌ؛ قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأَنْفَالُ: ٧١]، وَلَمْ يَقُلْ: فَخَانَهُمْ، وَأَمَّا الْخِدَاعُ؛ فَهُوَ كَالْمَكْرِ، يُوصَفُ اللهُ بِهِ حِينَ يَكُونُ مَدْحًا، وَلَا يُوصَفُ بِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ؛ قَالَ اللهُ - تَعَالَىٰ - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ١٤٢].

٣ - وَمِنْ أَخْطَاءِ بَعْضِ الْبُلَاغِيِّينَ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المَائِدَة: ١١٦]. أَنَّهَا بِمَعْنَىٰ: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ لَفْظُ النَّفْسِ إِلَّا أَنَّهَا اسْتُعْمِلَتْ هُنَا مُشَاكَلَةً لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ لَفْظِ النَّفْسِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُثْبِتُونَ النَّفْسَ لِلهِ - تَعَالَىٰ -، وَنَفْسُهُ هِيَ ذَاتُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الدَّلِيلُ مِنَ الْكِتَابِ:

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المَائِدَة: ١١٦].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأَنْعام: ٥٤].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طَهَ: ٤١].

الدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ:

جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٧٤٠٥)، وَمُسْلِم (٢٦٧٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - : «يَقُولُ اللهُ - تَعَالَىٰ - : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ؛ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي...» وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٤٨٦) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - : «... وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢٥٧٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي...». =

أي: فَنُجَازِيهِ عَلَىٰ جَهْلِهِ، فَجَعَلَ لَفْظَة «نَجْهَلُ» مَوْضِعَ فَنُجَازِيهِ لأَجْلِ الْمُشَارَكَةِ.

وَمِنْ طَرِيفِ الْمُشَاكَلَةِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

وَالدَّهْرُ أَلأَمُ مَنْ شَرِقْتَ بِلَوْمِهِ ... إِلاَّ إِذَا أَشْرَقْتَهُ بِكَرِيمِ

فَجَعَلَ لَفْظَةَ أَشْرَقْتَهُ بِكَرِيمٍ مَوْضِعَ انْتَصَرْتُ عَلَيْهِ بِكَرِيمٍ لِلْمُشَارَكَةِ.

وَمِنَ الْمُشَاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:

قَالُوا: الْتَمِسْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

أَرَادَ «خَيِّطُوا» فَذَكَرَهُ بِلَفْظِ «اطْبُخُوا» لِلْمُشَاكَلَةِ اللَّفْظِيَّةِ.

وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ: أَنَّ ضَيْفًا نَزَلَ عَلَىٰ آخَرَ مِنْ أَرْبَابِ الْمُجُونِ، فَظَلَّ يُسْمِعُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْغِنَاءِ مَا شَاءَ، مِنَ الصَّبَاحِ إِلَىٰ الْمَسَاءِ دُونَ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ شَيْئًا مِنْ طَعَامٍ، وَأَخِيرًا وَلَمَّا قَتَلَهُ الْجُوعُ، قَالَ لَهُ الْمُضِيفُ: أَيُّ نَغَمٍ تُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ؟.

قَالَ: أُحِبُّ نَغَمَ الْمَقْلِيِّ!.

فَالْمَقْلِيُّ لا نَغَمَ لَهُ، وَإِنَّمَا جَاءَ الضَّيْفُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ لِلْمُشَاكَلَةِ.

= قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَةَ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي «الْفَتَاوَىٰ» (١٤/ ١٩٦) عَنْ نَفْسِ اللهِ: «وَنَفْسُهُ هِيَ ذَاتُهُ الْمُقَدَّسَةُ».

وَقَالَ الْقَاسِمِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي تَفْسِيرِهِ: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ»؛ أَيْ: ذَاتُهُ الْمُقَدَّسَةُ».

الطِّبَاقُ

الطِّبَاقُ حَقِيقَتُهُ:

هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَضِدَّهُ فِي الْكَلامِ.

وَقَدْ يَكُونَانِ اسْمَيْنِ، كَقَوْلِه – تَعَالَىٰ –: ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ [الحَدِيد: ٣].

وَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ [الْكَهْف: ١٨].

وَقَدْ يَكُونَانِ فِعْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** ﴾ [النَّجْمُ: ٤٣].

أَوْ حَرْفَيْنِ كَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٢٨].

وَيَنْقَسِمُ الطِّبَاقُ قِسْمَيْنِ:

١ - **طِبَاقُ الْمُوَافَقَةِ:** وَهُوَ أَنْ يَجْتَمِعَ الضِّدَّانِ مَعَ اتِّحَادِ التَّعْبِيرِ سَلْبًا أَوْ إِيجَابًا وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢]، وَقَوْلُهُ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى** ﴾ [طَهَ: ٧٤].

٢ - **طِبَاقُ الْمُخَالَفَةِ:** وَهُوَ أَنْ يَجْتَمِعَ الضِّدَّانِ مَعَ الاخْتِلافِ بَيْنَهُمَا سَلْبًا وَإِيجَابًا، بِأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا مُوجِبًا وَالآخَرُ مَنْفِيًّا، كَقَوْلِه – تَعَالَىٰ –: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [النِّسَاءُ: ١٠٨]، وَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ –: ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المَائِدَةُ: ٤٤].

obeikandl.com

الْمُقَابَلَةُ

الْمُقَابَلَةُ: هِيَ إِيرَادُ الْكَلامِ، ثُمَّ الْمُقَابَلَةُ بِمِثْلِهِ فِي الْمَعْنَىٰ وَاللَّفْظِ عَلَىٰ جِهَةِ الْمُوَافَقَةِ أَوِ الْمُخَالَفَةِ.

كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ﴾ [النَّمْلُ: ٥٢]، فَخَوَاءُ بُيُوتِهِمْ وَخَرَابُهَا بِالْعَذَابِ مُقَابَلَةٌ لِظُلْمِهِمْ.

وَقَوْلُهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ** ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٧٥].

فَفِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ مُقَابَلَةٌ بَيْنَ الضَّلالَةِ وَالْهُدَىٰ، وَبَيْنَ الْعَذَابِ وَالْمَغْفِرَةِ.

وَقَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [التَّوْبَةُ: ٨٢].

فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ، وَالْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ مُقَابَلَةً لِسُوءِ عَمَلِهِمْ.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَإِنَّ الْمُقَابَلَةَ مِنْ دَقِيقِ الْمَسْلَكِ، لا يَسْلُكُهُ إِلاَّ خَبِيرٌ بِأَسَالِيبِ الْكَلامِ، وَإِلاَّ كَانَ تَكَلُّفًا مَمْقُوتًا، وَقَدْ بَلَغَ أَبُو الطَّيِّبِ فِيهِ الْغَايَةَ بِقَوْلِهِ:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي ... وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَقَدْ طَابَقَ بَيْنَ أَزُورُ وَأَنْثَنِي، وَبَيْنَ سَوَادُ وَبَيَاضُ، وَبَيْنَ اللَّيْلُ وَالصُّبْحُ، وَبَيْنَ يَشْفَعُ وَيُغْرِي، وَبَيْنَ لِي وَبِي.

وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنُ زَيْدُون:

سِرَّان فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنا ... حَتَّىٰ يَكَادُ لِسَانُ الصُّبْحِ يَفْشِينَا

فَقَدْ طَابَقَ بَيْنَ الظَّلْمَاءِ وَالصُّبْحِ وَبَيْنَ يَكْتُمُنَا وَيَغْشِينَا[١].

---

(١) تَنْبِيهٌ:

بَعْضُ الْبُلاغِيِّينَ وَقَعُوا فِي أَخْطَاءٍ عَقَدِيَّةٍ فِي بَابِ الْمُقَابَلَةِ فَفِي قَوْلِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النَّمْلُ: ٥٠]. قَالُوا: الْمَكْرُ مِنَ اللهِ الْعَذَابَ، جَعَلَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - مُقَابَلَةً لِمَكْرِهِمْ بِأَنْبِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلصِّفَةِ يُلازِمُهَا، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَاشِيَةٍ عَلَىٰ الْمُشَاكَلَةِ أَنَّ الْمَكْرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ لِلهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -.

وَمِنْ أَخْطَاءِ بَعْضِ الْبُلاغِيِّينَ - أَيْضًا - فِي بَابِ الْمُقَابَلَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦٧]، إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لا يُوصَفُ بِالنِّسْيَانِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ - سُبْحَانَهُ - ذَلِكَ مُقَابَلَةً لِنِسْيَانِهِمْ، وَهَذَا - أَيْضًا - مِنْ تَفْسِيرِ الصِّفَةِ بِلازِمِهَا، فَإِنَّ النِّسْيَانَ (الَّذِي هُوَ بِمَعْنَىٰ التَّرْكِ) صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ ثَابِتَةٌ لِلهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لأَدِلَّةٍ مِنْهَا:

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأَعْرَاف: ٥١].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦٧].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السَّجْدَة: ١٤].

وَقَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجَاثِيَة: ٣٤].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢٩٦٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - فِي رُؤْيَةِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**إِنَّ اللهَ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لا. فَيَقُولُ - أَيْ: اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي...**».

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الرَّدِّ عَلَىٰ الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ» (ص٢١): «أَمَّا قَوْلُهُ: «**فَالْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**»؛ يَقُولُ: نَتْرُكُكُمْ فِي النَّارِ؛ «**كَمَا نَسِيتُمْ**» كَمَا تَرَكْتُمُ الْعَمَلَ لِلْقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا» اهـ.

وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي «مُجْمَلِ اللُّغَةِ» (ص٨٦٦): «النِّسْيَانُ: التَّرْكُ، قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾» اهـ.

وَسُئِلَ الْعَلاَّمَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَىٰ» (٣/ ٥٤ - ٥٦ رقم ٣٥٤)، السُّؤَالَ الآتِي: «هَلْ يُوصَفُ اللهُ - تَعَالَىٰ - بِالنِّسْيَانِ؟. فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: لِلنِّسْيَانِ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: الذُّهُولُ عَنْ شَيْءٍ مَعْلُومٍ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٦]. وَضَرَبَ مَجْمُوعَةً مِنَ الأَمْثِلَةِ لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «وَعَلَىٰ هَذَا فَلا يَجُوزُ وَصْفُ اللهِ بِالنِّسْيَانِ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

وَالْمَعْنَىٰ الثَّانِي لِلنِّسْيَانِ: التَّرْكُ عَنْ عِلْمٍ وَعَمْدٍ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا =

عليهم أبواب كل شيء﴾ [الأنعام: ٤٤]، ومثل قوله - تعالى -: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما (١١٥)﴾ [طه: ١١٥]، على أحد القولين، ومثل قوله - ﷺ - في أقسام الخيل: «ورجل ربطها تغنيا وتعففا، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها؛ فهي له كذلك ستر».

وهذا المعنى من النسيان ثابت لله - عز وجل - قال الله - تعالى -: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾ [السجدة: ١٤]، وقال الله في المنافقين: ﴿نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (٦٧)﴾ [التوبة: ٦٧].

وفي «صحيح مسلم» (٢٩٦٨) في كتاب الزهد والرقائق عن أبي هريرة - رضي الله عنه -؛ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟. (فذكر الحديث، وفيه): أن الله - تعالى - يلقى العبد، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني».

وتركه - سبحانه - للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته؛ قال الله - تعالى -: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧)﴾ [البقرة: ١٧]، وقال - تعالى -: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون (٣٥)﴾ [العنكبوت: ٣٥].

والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه.

وقيام هذه الأفعال به - سبحانه - لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى؛ كما هو معلوم عند أهل السنة» اهـ.

حُسْنُ التَّعْلِيلِ

حُسْنُ التَّعْلِيلِ:

أَنْ يُنْكِرَ الأَديبُ عِلَّةَ الشَّيْءِ الْمَعْرُوفَة، وَيَأْتِي بِعِلَّةٍ أُخْرَىٰ طَرِيفَةٍ مِنَ ابْتِكَارِه، لَهَا اعْتِبَارٌ لَطِيفٌ وَمُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ دِقَّةِ النَّظَرِ بِحَيْثُ تُنَاسِبُ الْغَرَضَ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ.

كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدْ يَشِيبُ الْفَتَىٰ وَلَيْسَ عَجِيبًا ... أَنْ يُرَىٰ النُّورُ فِي الْقَضِيبِ الرَّطِيبِ

فَكَمَا تَعْلَمْ أَنَّ الشَّيْبَ أَسْبَابُهُ مَعْلُومَةٌ عِلَلُهُ، وَلَكِنَّنَا نَجِدُ الشَّاعِرَ قَدْ عَلَّلَهُ بِغَيْرِ كُنْهِه، وَهَذَا يُسَمَّىٰ حُسْنُ التَّعْلِيلِ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا عَلَّلَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ زِلْزَالاً حَدَثَ فِي مِصْر، فَقَالَ:

مَا زُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ سُوءٍ أُرِيدَ بِهَا ... لَكِنَّهَا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ طَرَبًا

فَجَعَلَ الزِّلْزَالَ نَاشِئًا عَنْ عَدْلٍ مَمْدُوحِه.

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ فِي الرِّثَاءِ:

وَمَا كُلْفَةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ ... وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطْمِ

يَقْصِدُ أَنَّ الْحُزْنَ عَلَىٰ الْمَرْثِيِّ شَمَلَ كَثِيرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْكَوْنِ، فَهُوَ لِذَلِكَ يَدَّعِي أَنَّ كَلِفَةَ الْبَدْرِ – وَهِيَ مَا يَظْهَرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِنْ كُدْرَةٍ – لَيْسَتْ نَاشِئَةً عَنْ سَبَبٍ طَبِيعِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ حَادِثَةٌ مِنْ أَثَرِ اللَّطْمِ عَلَىٰ فِرَاقِ الْمَرْثِيّ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَمَّـا ذُكَـاءُ فَلَمْ تَصْـفَـرّ إِذَا جَنَحَتْ إِلاَّ لِفُـرْقَـةِ ذَاكَ الْـمَنْظَرِ الْـحَـسَنِ

يَقْصِدُ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَصْفرّ عِنْدَ الْجُنُوحِ إِلَىٰ الْمَغِيبِ لِلسَّبَبِ الْمَعْرُوفِ، وَلَكِنَّهَا اصْفَرَّتْ مَخَافَةَ أَنْ تُفَارِقَ وَجْهَ الْمَمْدُوحِ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

مَا قِصَّةُ الْغَيْثِ عَنْ مِصْرَ وَتُرْبَتِهَا طَبْعًا وَلَكِنْ تَعَدَّاكُمْ مِنَ الْخَجَلِ

وَلا جَرَىٰ النِّيلُ إِلاَّ وَهُوَ مُعْتَرِفٌ بِسَبْقِكُمْ فَلِذَا يَجْرِي عَلَىٰ مَهَلِ

obeikandl.com

تَأْكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ وَعَكْسُهُ

أَيْ تَأْكِيدُ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ

أَوَّلاً - تَأْكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ:

وَلَهُ أُسْلُوبَانِ:

الأُسْلُوبُ الأَوَّلُ - أَنْ يَذْكُرَ صِفَةَ ذَمٍّ مَنْفِيَّةٍ، ثُمَّ يَأْتِي بِأَدَاةِ الاسْتِثْنَاءِ، فَيَتَوَهَّمُ السَّامِعُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَثْنِيَ مِنْ هَذَا الْمَنْفِيِّ شَيْئًا يَذِمُّ بِهِ الْمَمْدُوحَ.

كَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - حَاكِيًا عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ: ﴿**وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا**﴾ [الأَعْرَافُ: ١٢٦].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا**﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٢٥، ٢٦].

فَفِي هَذَا الأُسْلُوبِ نَنْفِي عَيْبًا ثُمَّ نَسْتَثْنِي شَيْئًا إِلاَّ أَنَّ هَذَا الْمُسْتَثْنَىٰ عِنْدَ التَّأَمُّلِ نَجِدُهُ مَدْحًا آخَرَ.

انْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِ الذُّبْيَانِيِّ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فَقَدْ نَفَىٰ الْعَيْبَ كَمَا رَأَيْتَ بِقَوْلِهِ: (وَلا عَيْبَ فِيهِمْ) ثُمَّ جَاءَ بِأَدَاةِ الاسْتِثْنَاءِ، فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُثْبِتَ عَيْبًا، وَلَكِنْ هَذَا الَّذِي اسْتَثْنَاهُ لَمْ يَكُنْ سِوَىٰ مَدْحٍ عَلَىٰ مَدْحٍ.

الأُسْلُوبُ الثَّانِي – أَنْ يَذْكُرَ الْمُتَكَلِّمُ صِفَةَ مَدْحٍ، ثُمَّ يَسْتَثْنِي مِنْهَا صِفَةً، فَيُظَنُّ أَنَّ الْمُسْتَثْنَىٰ مَذْمُومٌ، وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ يَكُونُ مَدْحًا عَلَىٰ مَدْحٍ.

كَقَوْلِ الذُّبْيَانِيِّ - أَيْضًا -:

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَّادٌ فَمَا يُبْقِي عَلَىٰ الْمَالِ بَاقِيًا

وَقَوْلِ الآخَرِ:

وَعُودٌ كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ نَضَارَةٌ وَلَكِنَّهَا يَوْمَ الْهِيَاجِ صُخُورُ

ثَانِيًا - *تَأْكِيدُ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ:*

وَلَهُ أُسْلُوبَانِ:

الأَوَّلُ - أَنْ يَنْفِي صِفَةَ خَيْرٍ ثُمَّ يَأْتِي بِأَدَاةِ اسْتِثْنَاءٍ فَيَتَوَهَّمَ أَنَّهُ يُرِيدُ مَدْحًا، نَحْو: فُلانٌ لا خَيْرَ فِيهِ إِلاَّ أَنَّهُ يَتَصَدَّقُ بِمَا يَسْرِقُ.

الثَّانِي - أَنْ يُثْبِتَ صِفَةَ ذَمٍّ ثُمَّ يَأْتِي بِأَدَاةِ الاسْتِثْنَاءِ فَيُتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُرِيدُ مَدْحًا إِلاَّ أَنَّ الْمُسْتَثْنَىٰ يَكُونُ ذَمًّا.

نَحْو: لا جَمَالَ فِي الخُطْبَةِ إِلاَّ أَنَّهَا طَوِيلَةٌ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ.

وَنَحْوُ: فُلانٌ حَسُودٌ إِلاَّ أَنَّهُ نَمَّامٌ.

الأسلوب الحكيم

أي أخي، انْظُرْ أوَّلاً إلَىٰ هَذه التَّسمية إنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحكْمَة في مُخَاطَبَة النَّاس، وَحقيقتُهُ هُو أنَّ تُحَدِّثَ الْمُخَاطَبَ بغَيْر مَا يَتَوَقَّعُ بحَمْلِ كَلامه عَلَىٰ خلاف مُرَاده؛ تَنبيهًا عَلَىٰ أنَّ الأوْلَىٰ أنْ يكُونَ خلاف الْمُرادُ تَوْجيهًا وَتَنْبيهًا.

فانْظُرْ إلَىٰ قول الرَّبِّ – جَلَّ جَلالُهُ –: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلَّة قُلْ هي مواقيتُ للناس والحج وليْسَ الْبِرُّ بأن تأتُوا البُيوتَ من ظُهُورِها ولكنَّ البرَ منِ اتَّقَىٰ وأتوا الْبُيُوتَ من أبوابها** ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٩].

فأنْتَ تَرَىٰ أنَّ سُؤَالَ الصَّحَابَةَ عَنْ علَّة تَغَيُّر الْهلال، فَكَأنَّهُمْ قالُوا: «مَا بَالُ الْهلال يَبْدُو صَغيرًا ثُمَّ يكبر ثُمَّ يَعُودُ كَمَا بَدَأَ؟».

وَلَكن رَبُّنَا – جل في عَلاهُ – أخْبَرَهُمْ عَنِ الْحكْمَة لا عَنِ العلَّة فَقَالَ – سُبْحَانَهُ وتعالى –: ﴿ **قُلْ هي مَوَاقيتُ للنَّاسِ والحجِ** ﴾ وهَذه الإجَابَةُ – كما تَعْلَمُ – لَيْسَ عَنْ سبب تَغَيُّر الْهلال، بَلْ عَنِ الْحكْمَة منْهُ، وهَذَا هُوَ الأُسْلُوبُ الْحكيمُ، فكأنَّه قالَ لَهُمْ حَريٌّ بكُمْ أنْ تَسْأَلُوا عَمَّا أنْتُمْ بحَاجَة إلَيْه دَلَّ عَلَىٰ ذَلكَ تَمَامُ الآية: ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بأن تأتُوا الْبُيُوتَ من ظُهُورِها** ﴾.

أيْ أنَّ مثلَهُمْ في السُّؤال كَمثْلِ مَنْ يَتْرُكَ بَابَ الْبَيْت وَيَدْخُلُ منْ ظَهْره.

وَقَالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فللْوَالدَيْنِ وَالأَقْربينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكينِ وَابْنِ السَّبيلِ وَمَا تَفْعَلُوا منْ خَيْرٍ فَإنَّ اللَّهَ به عليمٌ** ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢١٥].

فَقَدْ سَأَلُوا عَمَّا يُنْفِقُونَ، وَلَكِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أَجَابَهُمْ عَنْ سُؤَالٍ آخَرَ، وَهُوَ لِمَنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ النَّفَقَةُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ حَرِيٌّ بِكُمْ أَنْ تَسْأَلُوا سُؤالاً مُفِيداً أَنْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وَهَذَا الَّذِي تَقَدَّمَ هُوَ حَوْلَ تَجَاهُلِ سُؤَالِ الْمُخَاطَبِ وَإِجَابَتِهِ عَنْ سُؤَالٍ آخَرَ لا مَشَقَّةَ فِيهِ وَلا حَرَجَ، بَلْ نَافِعًا مُفِيداً.

وَهُنَاكَ نَوْعٌ آخَرٌ مِنَ الأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ وَهُوَ: أَنْ نَحْمِلَ كَلامَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَا كَانَ يَقْصِدُهُ وَيُرِيدُهُ، وَفِي هَذَا تَوْجِيهٌ لِلْمُخَاطَبِ إِلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ هِمَّتُهُ.

وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ إِلاَّ أَنَّ الأَوَّلَ كَانَ نَاشِئًا عَنِ سُؤَالٍ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ هَذَا النَّوْعِ مَا جَرَىٰ بَيْنَ الْقَبَعْثَرِيِّ وَالْحَجَّاجِ، فَإِنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ الْحَجَّاجُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ فِي بُسْتَانٍ قَالَ: «اللَّهُمَّ سَوِّدْ وَجْهَهُ، وَاقْطَعْ عُنُقَهُ، وَاسْقِنِي مِنْ دَمِهِ». فَوُشِيَ بِهِ إِلَىٰ الْحَجَّاجِ، فَلَمَّا مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ الْعِنَبَ. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ مُتَوَعِّدًا: «لأَحْمِلَنَّكَ عَلَىٰ الأَدْهَمِ» يُرِيدُ الْقَيْدَ الْحَدِيدِيَّ الأَسْوَدَ، فَقَالَ الْقَبَعْثَرِيُّ: «مِثْلُ الأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَىٰ الأَدْهَمِ وَالأَشْهَبِ» يَعْنِي الْفَرَسَ الأَسْوَدَ، وَالْفَرَسَ الأَبْيَضَ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: أَرَدْتُ الْحَدِيدَ. فَقَالَ الْقَبَعْثَرِيُّ: لأَنْ يَكُونَ حَدِيد أَخْيَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَلِيداً، وَمُرَادُهُ تَخْطِئَةَ الْحَجَّاجِ بِأَنَّ الأَلْيَقَ بِهِ الْوَعْدُ لا الْوَعِيدِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنُ حَجَّاجٍ الْبَغْدَادِيِّ:

قَالَ ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مِرَارًا ... قُلْتُ ثَقَلْتَ كَاهِلِي بِالأَيَادِي

قَالَ طَوَّلْتُ قُلْتُ أَوَلَيْتُ طُولاً ... قَالَ أَبْرَمْتُ قُلْتُ: حَبْلُ وِدَادِي

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ وَقَىٰ أَخَاهُ الذَّلَّةَ وأَذْهَبَ عَنْهُ الحَرَجَ، فَهُوَ قَالَ لَهُ: لَقَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ كَثْرَةَ مَا أَسْأَلُ، وَلَكِنَّهُ يَرُدُّ عَلَيْهِ بِمَعْنًى آخَر، إِذْ قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ أَثْقَلْتَ كَاهِلِي بِالنِّعَمِ. وَقَالَ لَهُ – أَيْضًا –: لَقَدْ طَوَّلْتُ عَلَيْكَ بِأَخْذِي وَقْتَكَ، فَكَانَ الْجَوَابُ: أَوْلَيْتَ طُولاً، أَيْ: نِعَمًا، وقَالَ لَهُ: أَبْرَمْتُ، أَيْ: جَعَلْتُكَ تَسْأَمُ كَثْرَةَ زِيَارَتِي لَكَ، فَقَالَ لَه: إِنَّمَا أَبْرَمْتَ حَبْلَ مَوَدَةٍ وَعَهْدَ صَفَاءٍ، أَيْ: أَنَّ زِيارَتَهُ الْمُتَكَرِّرَةَ قَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ مَوَدَّةٍ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ.

وَأَجْمَلُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدِي مُزَاوَلَةَ الْقِرَىٰ ... وَقَدْ رَأَتِ الضِّيفَانَ يَنْحَوْنَ مَنْزِلِي

فَقُلْتُ كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلامَهَا ... هُمُ الضَّيْفُ جِدِّي فِي قِرَاهِمِ وَعَجِّلِي

فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ الزَّوْجَ عِنْدَمَا رَأَىٰ زَوْجَتَهُ قَدْ فَتَحَتْ بَابًا لا يُغْلَقُ إِلاَّ بَعْدَ أَخْذٍ وَرَدٍّ عَمَدَ إِلَىٰ الأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ فِي صَرْفِهِ فَشَغَلَهَا بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ وَلَهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَحِبَّتِي حِينَ مَالُوا عَنْ مُوَاصَلَتِي ... تَحَيَّلُوا يَدَّعُونَ الذَّنْبَ مِنْ قِبَلِي

قَالُوا: تَنَاسَيْتَ؟ قُلْتُ: الرُّوحَ بَعْدَكُمُ ... قَالُوا: جَفَوْتَ، فَقُلْتُ: النَّوْمَ فِي مُقَلِي

الْمُبَالَغَةُ

الْمُبَالَغَةُ: أَنْ يَدَّعِي لِوَصْفٍ بُلُوغَه فِي الشِّدَّةِ حَدًّا مُسْتَحِيلاً أَوْ مُسْتَبْعَدًا، فَإِنَّ الْمَعْنَىٰ إِذَا زَادَ عَنْ حَدِّهِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً.

وَمِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ أَنْ تُبَالِغَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، كَمَا مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَخْتَصِرَ وَتُوجِزَ، وَذَلِكَ لِتَوَسُّعِهَا فِي الْكَلامِ وَاقْتِدَارِهَا عَلَيْهِ، وَلِكُلٍّ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعٌ.

وتنقسم المبالغة قسمين:

القسم الأول: الْمُبَالَغَةُ فِي اللَّفْظِ، وَهِي تَجْرِي مَجْرَىٰ التَّأْكِيدِ، كَقَوْلِنَا: «رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ نَفْسَهُ عَيْنَهُ»، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ بِعَيْنِهِ، فَتُؤَكِّدُ عَبْدَ اللهِ بِالنَّفْسِ، فَقَوْلُكَ رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ، قَدْ أَغْنَاكَ عَنْ ذِكْرِ النَّفْسِ وَالْعَيْنِ.

القسم الثاني: الْمُبَالَغَةُ فِي الْمَعْنَىٰ فَإِخْرَاجُ الْقَوْلِ عَلَىٰ أَبْلَغِ غَايَاتِ مَعَانِيهِ، كَقَوْلِ الرَّبِّ – جَلَّ جَلالُهُ –: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٤][1].

المبالغة المقبولة:

مِنَ الْمُبَالَغَةِ الْمَقْبُولَةِ أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ حَالاً مِنَ الأَحْوَالِ فِي شِعْرٍ، لَوْ وَقَفَ عَلَيْهِ لأَجْزَأَهُ ذَلِكَ فِي الْغَرَضِ، فَيَزِيدُ فِي الْمَعْنَىٰ مَا يَكُونُ أَبْلَغَ كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ الأَيْهَمِ:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا ... وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالا

---

[1] قَالَ أَبُو هِلالٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الصِّنَاعَتَيْنِ» (ص٣٦٧): «وَمِنَ الْمُبَالَغَةِ نَوْعٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ الْمُتَكَلِّمُ حَالاً لَوْ وَقَفَ عَلَيْهَا أَجْزَأَتْهُ فِي غَرَضِهِ مِنْهَا، فَيُجَاوِزُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَزِيدَ فِي الْمَعْنَىٰ زِيَادَةً تُؤَكِّدُهُ وَيَلْحَقُ بِهِ لاحِقَةً تُؤَيِّدُهُ».

فَإِكْرَامُهُمْ لِلْجَارِ مَا دَامَ فِيهِمْ مِنَ الأَخْلاقِ الْجَمِيلَةِ الْمَوْصُوفَةِ، وَإِتْبَاعُهُمْ إِيَّاهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ كَانَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الْجَمِيلِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَكَمِ الْخضريِّ:

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِالْقِرَى ... مِنَ الْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَقَدْ كَانَ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ هَذَا الْمَهْجُو أَبْخَلَ مِنَ الْكَلْبِ.

لَكِنَّهُ بَالَغَ فَقَالَ: «وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ».

وَمِنَ الْمُبَالَغَةِ الْمَقْبُولَةِ: الْمُبَالَغَةُ الْبَلِيغَةُ، وَهِيَ فِي أَنْ تَبْلُغَ بِالْمَعْنَى أَقْصَى غَايَاتِهِ وَأَبْعَدَ نِهَايَاتِهِ، وَلا تَقْتَصِرَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهُ عَلَى أَدْنَى مَنَازِلِهِ وَأَقْرَبِ مَرَاتِبِهِ.

كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى**﴾ [الْحَجّ: ٢].

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ السِّيَاقُ هَكَذَا «تَذْهَلُ كُلُّ امْرَأَةٍ عَنْ وَلَدِهَا» لَكَانَ بَيَانًا حَسَنًا وَبَلاغَتُهُ كَامِلَةٌ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْمُرْضِعَةَ لِلْمُبَالَغَةِ؛ لأَنَّ الْمُرْضِعَ أَشْفَقُ عَلَى وَلَدِهَا؛ لِمَعْرِفَتِهَا بِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَأَشْغَفُ بِهِ لِقُرْبِهِ مِنْهَا وَلُزُومِهَا لَهُ، لا يُفَارِقُهَا لَيْلاً وَلا نَهَارًا.

وَعَلَى حَسْبِ الْقُرْبِ تَكُونُ الْمَحَبَّةُ وَالإِلْفُ.

وَهَذَا وَصْفٌ فِي غَايَةِ الْبَلاغَةِ وَالإِعْجَازِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْعَظِيمَ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ الشَّدِيدِ وَالْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً**﴾ [النُّورُ: ٣٩]، وَلَوْ قَالَ: ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ**﴾ فَقَطْ لَكَانَ بَلاغَةً عَالِيَةً، وَلَكِنَّهُ لَمَّا أَرَادَ الْمُبَالَغَةَ ذَكَرَ ﴿**الظَّمْآنُ**﴾ لأَنَّ حَاجَتَهُ إِلَى الْمَاءِ أَشَدّ، فَكَانَ قِمَّةً فِي الإِيجَازِ وَالإِعْجَازِ.

التَّذْيِيلُ

التَّذْيِيلُ: هُوَ تَعْقِيبٌ بِجُمْلَةٍ أُخْرَى تَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَاهَا بَعْدَ إِتْمَامِ الْكَلَامِ؛ لِإِفَادَةِ التَّوْكِيدِ.

كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [التَّوْبَةُ: ١١١]، وَلَمَّا كَانَ أَوَّلُ الْآيَةِ جَارِيًا مَجْرَى الْعَقْدِ، نَاسَبَ تَذْيِيلَهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى وَفَاءِ الْعَهْدِ.

وَيَنْقَسِمُ التَّذْيِيلُ إِلَى ضَرْبَيْنِ:

١ - **الضَّرْبُ الْأَوَّلُ** - هُوَ مَا يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْمَثَلِ بِأَنْ يَقْصِدَ بِالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ حُكْمٌ كُلِّيٌّ مُنْفَصِلٌ عَمَّا قَبْلَهُ جَارٍ مَجْرَى الْأَمْثَالِ فِي الِاسْتِقْلَالِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١) ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٨١].

٢ - **الضَّرْبُ الثَّانِي** هُوَ مَا لَمْ يَخْرُجْ مَخْرَجَ الْمَثَلِ، بَلْ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا قَبْلَهُ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ **ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ** (١٧) ﴾ [سَبَأ: ١٧].

فَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٤]، فَقَدْ ذَيَّلَهَا بِتَذْيِيلَيْنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُحَقِّقٌ لِفَائِدَتِهَا، وَدَالٌّ عَلَى مَضْمُونِهَا:

الأَوَّلُ – ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾.

وَالثَّانِي – قَوْلُهُ – تَعَالَىٰ – : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فَهَذَا تَوْكِيدٌ لِقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ – : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾.

فَوَائِدُ التَّذْيِيلِ:

فَوَائِدُ التَّذْيِيلِ جَمَّةٌ عَظِيمَةٌ تَزِيدُ الْمَعْنَىٰ وُضُوحًا.

قَالَ أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: وَلِلتَّذْيِيلِ فِي الْكَلَامِ مَوْقِعٌ جَلِيلٌ، وَمَكَانٌ شَرِيفٌ خَطِيرٌ؛ لأَنَّ الْمَعْنَىٰ يَزْدَادُ بِهِ انْشِرَاحًا، وَالْمَقْصِدُ اتِّضَاحًا.

وَمِنْ فَوَائِدِهِ - أَيْضًا -: **تَوْكِيدُ مَنْطُوقِهِ**، كَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ – : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسْرَاءُ: ٨١].

وَمِنْ فَوَائِدِهِ: **تَأْكِيدُ مَفْهُومِهِ**، كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمْهُ ... عَلَىٰ شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ

فَالْجُمْلَةُ الأُولَىٰ تَدُلُّ بِمَفْهُومِهِ عَلَىٰ نَفْيِ الْكَامِلِ مِنَ الرِّجَالِ، وَقَدْ أَكَّدَ بِالثَّانِيَةِ، وَالاسْتِفْهَامُ فِيهَا لِلإِنْكَارِ، أَيْ لَيْسَ فِي الرِّجَالِ مَرْضِيٌّ الْخِصَالِ.

افْتِتَاحُ الْكَلَامِ

قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ يَنبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي ثَلاثَةِ مَوَاضِعَ:

الابْتِدَاءِ، وَالتَّخَلُّصِ، وَالْخِتَامِ.

أَوَّلاً - حُسْنُ الابْتِدَاءِ:

هُوَ أَنْ يَتَلاءَمَ مَعَ الْمَقْصُودِ، وَيُلَوِّحَ مِنَ الأَوَّلِ بِالْمَوْضُوعِ، وَيُعْرَفُ حُسْنُ الابْتِدَاءِ بـ«بَرَاعَةِ الاسْتِهْلالِ».

وَهُوَ مِنْ أَرَقِّ فُنُونِ الْبَلاغَةِ وَأَرْشَقِهَا، وَحَدُّهُ: أَنْ يَبْتَدِئَ الْمُتَكَلِّمَ كَلامَهُ بِمَا يُشِيرُ إِلَىٰ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ، بَلْ إِشَارَةٍ لَطِيفَةٍ، وَإِيمَاءَةٍ بَعِيدَةٍ أَوْ قَرِيبَةٍ.

وَمَا سُمِّيَ هَذَا النَّوْعُ (بَرَاعَةَ الاسْتِهْلالِ) إِلاَّ لأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُفْهِمُ غَرَضَهُ مِنْ كَلامِهِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ رَفْعِ صَوْتِهِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فِي اللُّغَةِ: الاسْتِهْلالُ، يُقَالُ: اسْتَهَلَّ الْمَوْلُودُ صَارِخًا: إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ الْوِلادَةِ، وَأَهَلَّ الْحَجِيجُ: إِذَا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ، وَسُمِّيَ الْهِلالُ هِلالاً؛ لأَنَّ النَّاسَ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ.

وَالابْتِدَاءُ أَوَّلُ مَا يَقَعُ فِي السَّمْعِ مِنْ كَلامِكَ، وَالْمَقْطَعُ آخِرُ مَا يَبْقَىٰ فِي النَّفْسِ مِنْ قَوْلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُتَكَلِّمُ مُتَأَنِّقًا فِيهِمَا، وَإِذَا كَانَ الابْتِدَاءُ حَسَنًا بَدِيعًا وَمَلِيحًا رَشِيقًا كَانَ دَاعِيًا إِلَىٰ الاسْتِمَاعِ لِمَا يَجِيءُ بَعْدَهُ مِنَ الْكَلامِ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ يَقُولُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ الٓمٓ ﴾، ﴿ حمٓ ﴾، ﴿ صٓ ﴾، ﴿ حمٓ ﴾، ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾، فَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ بِشَيْءٍ بَدِيعٍ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ دَاعِيَةً إِلَىٰ الاسْتِمَاعِ لِمَا بَعْدَهُ.

«مُعْجَمُ الْبَلاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ» (ص٧٣).

وَلِهَذَا جَعَلَ أَكْثَرَ الابْتِدَاءَاتِ بِالْحَمْدِ للهِ؛ لأَنَّ النُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ(١).

وَمَحَلُّ حُسْنِ الابْتِدَاءِ: الْخُطَبُ وَالرَّسَائِل.

وَفِي الشِّعْرِ شَرَطُوا أَنْ يَكُونَ مَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ دَالاً عَلَىٰ مَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ، مُشْعِرًا بِغَرَضِ النَّاظِمِ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ، بَلْ بِإِشَارَةٍ لَطِيفَةٍ، تَعْذُبُ حَلاوَتَهَا فِي الذَّوْقِ السَّلِيمِ، وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ قَصْدِهِ مِنْ: عُتْبٍ، أَوْ عُذْرٍ، أَوْ تَنَصُّلٍ، أَوْ تَهْنِئَةٍ، أَوْ مَدْحٍ، أَوْ هِجَاءٍ... وَنَحْوِهِ، وَكَذَلِكَ فِي النَّثْرِ.

وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ فِي الشِّعْرِ: قَوْلُ أَبِي تَمَّام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

فَقَدِ اسْتَهَلَّ قَصِيدَتَهُ بِذِكْرِ السَّيْفِ، وَفِيهِ إِيمَاءَةٌ قَرِيبَةٌ جِدًّا إِلَىٰ الْمَوْضُوعِ الَّذِي نُظِمَتِ الْقَصِيدَةُ بِصَدَدِه.

وَمِمَّا وَقَعَ مِنْ بَرَاعَةِ الاسْتِهْلالِ الَّتِي تُشْعِرُ بِغَرَضِ النَّاظِمِ وَقَصْدِهِ بَرَاعَةُ قَصِيدَةِ الْفَقِيهِ نَجْمُ الدِّينِ عُمَارَةَ الْيَمَنِيِّ، حَيْثُ يَقُولُ:

إِذَا لَمْ يُسَالِمْكَ الزَّمَانُ فَحَارِبْ ... وَبَاعِدْ إِذَا لَمْ تَنْتَفِعْ بِالأَقَارِبِ

فَإِشَارَتُهُ مِنَ الْعُتْبِ وَالشَّكْوَىٰ لا تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ الذَّوْقِ فِي هَذِهِ الْبَرَاعَةِ، وَيُفْهَمُ مِنْهَا أَنَّ بَقِيَّةَ الْقَصِيدَةِ تُعْرِبُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ يُهَنِّئُ بِمَوْلُودٍ:

بُشْرَىٰ فَقَدْ أَنْجَزَ الإِقْبَالُ مَا وَعَدَا ... وَكَوْكَبُ الْمَجْدِ فِي أُفُقِ الْعُلا صَعِدَا

---

(١) المَرْجِعُ السَّابِقُ (ص١٦٥).

(٢) انْظُرْ «خَزَانَةَ الأَدَبِ» (ص٨).

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي التَّهْنِئَةِ بِالشِّفَاءِ:

الْمَجْدُ عُوفِيَ إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَىٰ أَعْدَائِكَ الأَلَمُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي الرِّثَاءِ:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

وَلَمَّا فَرَغَ الْمُعْتَصِمُ مِنْ بِنَاءِ قَصْرِهِ، غَنَّاهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيُّ:

يَا دَارُ، غَيَّرَكِ الْبَلَىٰ وَمَحَاكِ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكِ؟

فَقِيلَ: إِنَّ الْمُعْتَصِمَ تَطَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَدَمَ الْقَصْرَ. فَكَانَ هَذَا الابْتِدَاءُ الْقَبِيحُ سَبَبَ التَّشَاؤُمِ وَالْخَرَابِ(١).

وَقَدِ اشْتُهِرَ أَبُو الطَّيِّبِ بِبَرَاعَةِ مَطَالِعِهِ، وَمِنْ رَوَائِعِهَا قَوْلُهُ:

أَتَرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي

فَقَدْ أَلْمَحَ إِلَىٰ مَوْضُوعِ قَصِيدَتِهِ – وَهُوَ الْغَزَلُ – بِرَشَاقَةٍ، زَادَهَا ابْتِكَارُ الْمَعْنَىٰ فِي حِسْبَانِ الدَّمْعِ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي – حُسْنًا وَجَمَالاً.

---

(١) قَالَ بَدَوِي طَبَانَة فِي كِتَابِهِ «مُعْجَمُ الْبَلَاغَةِ» (ص١٦٤): «يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَتَحَرَّزَ فِي أَشْعَارِهِ وَمُفْتَتَحِ أَقْوَالِهِ مِمَّا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ وَيُسْتَجْفَىٰ مِنَ الْكَلَامِ، وَالْمُخَاطَبَةِ، وَالْبُكَاءِ، وَوَصْفِ إِقْفَارِ الدِّيَارِ، وَتَشْتِيتِ الآلَافِ، وَنَعْيِ الشَّبَابِ، وَذَمِّ الزَّمَانِ، وَلَاسِيَّمَا فِي الْقَصَائِدِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْمَرَاثِي وَوَصْفِ الْخُطُوبِ الْحَادِثَةِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ مُؤَسَّسًا عَلَىٰ هَذَا الْمِثَالِ، تَطَيَّرَ مِنْهُ سَامِعُهُ». ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْفَضْلَ ابْنَ يَحْيَىٰ بْنِ بَرْمَكَ أَنْكَرَ عَلَىٰ أَبِي نُوَاسٍ ابْتِدَاءَهُ:

أَرْبَعِ الْبِلَىٰ، إِنَّ الْخُشُوعَ لَبَادِي عَلَيْكَ، وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وِدَادِي

قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ:

سَلَامٌ عَلَىٰ الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمْ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِ

وَسَمِعَهُ – اسْتَحْكَمَ تَطَيُّرُهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمْضِ أُسْبُوعٌ حَتَّىٰ نُكِبُوا.

ـ ثانيا - حسن التخلص:

كَثيراً مَا يَسْرُدُ النَّاظِمُ – أَوِ النَّاثِرُ – كَلامَهُ فِي مَقْصِدٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ غَيْرَ قَاصِدٍ إِلَيْهِ بِانْفِرَادِهِ، وَلَكِنَّهُ سَبَبٌ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فِيهِ إِلَىٰ كَلامٍ هُوَ الْمَقْصُودُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَوَّلِ عُلْقَةٌ وَمُنَاسَبَةٌ، وَهَذَا نَحْوُ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ مُسْتَطْلِعًا لِقَصِيدَتِهِ بِالْغَزَلِ، حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ مِنْهُ، خَرَجَ إِلَى الْمَدْحِ عَلَىٰ مَخْرَجٍ مُنَاسِبٍ لِلأَوَّلِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْكَلامُ آخِذًا بَعْضُهُ بِرِقَابِ بَعْضٍ، كَأَنَّهُ أُفْرِغَ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ[١].

وَهَذَا الْخُرُوجُ الْمُتَأَنِّقُ فِيهِ الْمُتَكَلِّمُ يُسَمَّىٰ: «حُسْنَ التَّخَلُّصِ».

عَرَّفَهُ الْبَلاغِيُّونَ بِأَنَّهُ: الانْتِقَالُ مِمَّا ابْتُدِئَ بِهِ الْكَلامُ: مِنْ تَشْبِيبٍ[٢]، أَوْ ذِكْرٍ لِلدِّيَارِ، أَوْ وَصْفٍ لِلْخَمْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ – إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْهُ الْكَلامُ، مَعَ رِعَايَةِ الْمُلاءَمَةِ بَيْنَ مَا ابْتُدِئَ بِهِ وَمَا انْتُقِلَ إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الْمُخَاطَبَ يَكُونُ مُتَرَقِّبًا لِهَذَا الانْتِقَالِ، فَإِذَا مَا جَاءَ حَسَنًا، قَدْ رُوعِيَ فِيهِ التَّلاؤُمُ، حَرَّكَ مِنْ نَشَاطِهِ، وَكَانَ أَدْعَىٰ لِلإِصْغَاءِ وَالْمُتَابَعَةِ، وَإِنْ جَاءَ بِخِلافِ ذَلِكَ أَدَّىٰ إِلَى النُّفُورِ وَالإِعْرَاضِ.

وَالتَّخَلُّصُ فِي النَّثْرِ أَسْهَلُ مِنْهُ فِي النَّظْمِ؛ لأَنَّ النَّاظِمَ يُرَاعِي الْقَافِيَةَ وَالْوَزْنَ.

وَأَوْلَى الشِّعْرِ بِأَنْ يُسَمَّىٰ تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ الشَّاعِرُ مِنْ مَعْنًى إِلَى مَعْنًى، ثُمَّ عَادَ إِلَى الأَوَّلِ، وَأَخَذَ فِي غَيْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ، كَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ فِي قَصِيدَةٍ يَعْتَذِرُ بِهَا إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ:

وَكَفْكَفْتُ[٣] مِنِّي عَبْرَةً[٤]، فَرَدَدْتُهَا ... إِلَى النَّحْرِ[٥]، مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ[٦] وَدَامِعُ

انظُرْ «مُعْجَمَ الْبَلاغَةِ» (ص٢٠٥).

التَّشْبِيبُ: التَّغَزُّلُ بِالنِّسَاءِ.

كَفْكَفْتُ: دَفَعْتُ وَصَرَفْتُ.

الْعَبْرَةُ: كَالدَّمْعَةِ زِنَةً وَمَعْنًى، وَالْجَمْعُ عَبَرَاتٌ، وَعَبْرٌ – بِزِنَةِ عِنَبٍ –.

النَّحْرُ: الصَّدْرُ وَزْنًا وَمَعْنًى، وَالْجَمْعُ نُحُورٌ.

مُسْتَهِلٌّ: رَافِعٌ صَوْتِي بِالْبُكَاءِ.

عَلَىٰ حِينِ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَىٰ الصِّبَا(١) وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ(٢) وَالشَّيْبُ وَازِعُ؟(٣)

ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَىٰ الاعْتِذَارِ، فَقَالَ:

وَلَكِنَّ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشُّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي، وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَمَا سَمِعَ تَوَعُّدَهُ، فَقَالَ:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي(٤) ضَئِيلَةٌ(٥) مِنَ الرُّقْشِ(٦)، فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ(٧)

يُسَهَّدُ(٨) مِنْ لَيْلِ التِّمَامِ(٩) سَلِيمُهَا(١٠) لِحَلْيِ(١١) النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ(١٢)

---

(١) الصِّبَا – بِالْكَسْرِ – : المَيْلُ إِلَىٰ هَوَىٰ النَّفْسِ وَاتِّبَاعِ شَهَوَاتِهَا.

(٢) الصَّحْوُ: تَرْكُ الصِّبَا والْبَاطِلِ، وبَابُهُ قَالَ.

(٣) وَازِعٌ: كَافٌّ زَاجِرٌ ناهٍ، وَبَابُهُ وَضَعَ.

(٤) سَاوَرَتْنِي: وَاثَبَتْنِي وأَصَابَتْنِي.

(٥) الضَّئِيلَةُ: الحَيَّة الدَّقِيقة النَّحِيفَةُ، وَالأُنْثَىٰ كُلَّمَا كَبُرَتْ صَغُرَ جِسْمُهَا.

(٦) الرُّقْشُ: جَمْعُ رَقْشَاءَ، وَهِيَ الحَيَّةُ المُنَقَّطَةُ بِسَوَادٍ وَبَيَاضٍ.

(٧) السُّمُّ النَّاقِعُ: المَنْقُوعُ، وَإِذَا نُقِعَ السُّمُّ كَانَ بَالِغًا شَدِيد التَّأْثِيرِ.

(٨) يُسَهَّد: لا يُتْرَكُ أَنْ يَنَامَ.

(٩) لَيْلُ التِّمَام – بِكَسْرِ التَّاءِ لا غَيْرُ – : أَطْوَلُ مَا يَكُونُ مِنْ لَيَالِي الشِّتَاءِ. وَيُرْوَىٰ: «نَوْمِ الْعِشَاءِ».

(١٠) السَّلِيمُ: اللَّدِيغُ، وَالجَمْعُ سَلْمَىٰ، مِنْ سَلَمَتْهُ الحَيَّةُ: إِذَا لَدَغَتْهُ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ السَّلامَة عَلَىٰ التَّفَاؤُلِ لَهُ بِهَا خِلافًا لِمَا يُحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْهُ، قَلَبُوا المَعْنَىٰ لَمَّا تَطَيَّرُوا مِنَ اللَّدِيغِ، كَمَا قَالُوا لِلْفَلاةِ: مَفَازَةً تَفَاؤُلاً بِالْفَوْزِ، وَهِيَ مَهْلَكَةٌ. وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ اللَّدِيغُ سَلِيمًا؛ لأَنَّهُ أُسْلِمَ لِمَا بِهِ.

(١١) الحَلْي – بِالْفَتْحِ – : مَا يُزَيَّنُ بِهِ مِنْ مَصُوغِ المَعْدِنِيَّاتِ أَوِ الحِجَارَةِ، وَالجَمْعُ حُلِيٌّ – بِزِنَةِ فَعُولٌ – وَقَدْ تُكْسَرُ الحَاءُ لِلإِتْبَاعِ، وَقِيلَ: الحُلِيُّ جَمْعُ حِلْيَةٍ.

(١٢) قَعَاقِعُ: جَمْعُ قَعْقَعةٍ، وَهِيَ حِكَايَةُ صَوْتِ الحُلِيِّ وَنَحْوِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ المَلْدُوغَ يُوضَعُ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الحُلِيِّ؛ لِئَلاَّ يَنَامَ، فَيَدِبَّ السُّمُّ فِي جَسَدِهِ فَيَقْتُلَهُ.

تَنَاذَرَهَا (١) الرَّاقُونَ(٢) مِنْ سُوءِ سَمِّهَا تُطَلِّقُهُ(٣) طَوْرًا(٤)، وَطَوْرًا تُرَاجِعُ

فَوَصَفَ الْحَيَّةَ وَالسَّلِيمَ الَّذِي يُشَبِّهُ بِهِ نَفْسَهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَىٰ الاعْتِذَارِ، فَقَالَ:

أَتَانِي -أَبَيْتَ اللَّعْنَ(٥)- أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ(٦) مِنْهَا الْمَسَامِعُ

ثُمَّ اطَّرَدَ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ إِلَىٰ تَخَلُّصٍ، حَتَّىٰ انْقَضَتِ الْقَصِيدَةُ(٧).

ثالثًا - حُسْنُ الْخِتَامِ:

وَيُسَمَّىٰ «حُسْنُ الانْتِهَاءِ»، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْكَلَامِ مُسْتَعْذَبًا حَسَنًا؛ لِتَبْقَىٰ لَذَّتُهُ فِي الاسْتِمَاعِ مُؤْذِنًا بِالانْتِهَاءِ، بِحَيْثُ يَبْقَىٰ الْمُسْتَمِعُونَ يَحُسُّونَ بِبَلَاغَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَيَتَمَنَّوْنَ الاسْتِزَادَةَ مِنْ حَدِيثِهِ.

وَالْخِتَامُ إِنْ جَاءَ حَسَنًا، جَبَرَ مَا يَكُونُ قَدْ وَقَعَ قَبْلَهُ مِنْ تَقْصِيرٍ، وَعَدَمِ وَفَاءٍ، وَإِنْ جَاءَ سَيِّئًا، فَقَدْ يُنْسِي مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ؛ لأَنَّهُ آخِرُ مَا يَعِيهِ السَّامِعِ، وَيَرْتَسِمُ فِي ذِهْنِهِ.

---

(١) تَنَاذَرَهَا الرَّاقُونَ: أَنْذَرَ وخَوَّفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

(٢) رَقَىٰ الرَّاقِي رُقْيَةً وَرُقْيًا: إِذَا عَوَّذَ وَنَفَثَ فِي عُوذَتِهِ، وَهُمُ الرَّاقُونَ.

(٣) طُلِّقَ السَّلِيمُ: رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَسَكَنَ وَجَعُهُ بَعْدَ الْعِدَادِ (أَيْ: وَقْتَ اهْتِيَاجِ الْوَجَعِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّدِيغَ إِذَا تَمَّتْ لَهُ سَنَةٌ مُذْ يَومٍ لُدِغَ، هَاجَ بِهِ الأَلَمُ مَرَّةً أُخْرَىٰ).

(٤) الطَّوْرُ - بِالْفَتْحِ -: التَّارَةُ، وَالْجَمْعُ أَطْوَارٌ.

(٥) أَبَيْتَ اللَّعْنَ: جُمْلَةٌ اعْتِرَاضِيَّةٌ دُعَائِيَّةٌ، كَانَتِ الْعَرَبُ تُحَيِّي بِهَا مُلُوكَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَعْنَاهَا: أَبَيْتَ - أَيُّهَا الْمَلِكُ - أَنْ تَأْتِيَ مَا تُلْعَنُ عَلَيْهِ. وَيُرْوَىٰ: «وَخُبِّرْتُ - خَيْرَ النَّاسِ - أَنَّكَ لُمْتَنِي».

(٦) اسْتَلَّتْ مَسَامِعُهُ: صَمَّتْ وَضَاقَتْ.

(٧) انْظُرِ «الْعُمْدَةَ» لابْنِ رَشِيقٍ (١ / ١٥٩).

كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ فِي خِتَامِ قَصِيدَتِهِ فِي مَدْحِ الْخَطِيبِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْمُرَادِيِّ:

وَإِنِّي جَدِيرٌ(١) – إِذْ بَلَغْتُكَ – بِالْمُنَىٰ ... وَأَنْتَ بِمَا أَمَّلْتُ مِنْكَ جَدِيرُ
فَإِنْ تُولِنِي مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ ... وَإِلاَّ فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورُ

وَقَوْلِ الْمَعَرِّيِّ:

بَقِيتَ بَقَاءَ الدَّهْرِ، يَا كَهْفَ أَهْلِهِ ... وَهَذَا دُعَاءٌ لِلْبَرِيَّةِ شَامِلُ

وَأَخِيرًا: هَا هُوَ الْبَحْثُ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ – أَخِي – مِمَّنْ خَصَّهُمُ اللهُ بِحِفْظِ الْجَمِيلِ، فَأَقَلُّ الْجَمِيلِ فِي كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ: «حَفِظَهُ اللهُ بِطَاعَتِهِ»، أَوْ: «رَحِمَهُ اللهُ، وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ».

وَأَسْتَوْدِعُكَ - أَخِي - بِهَذَا الدُّعَاءِ:

بَقِيتَ مَدَىٰ الدَّهْرِ، وَعِلْمُكَ رَاسِخٌ ... وَخَيْرُكَ مَمْدُودٌ، وَلَيْلُكَ عَامِرُ
يَوَدُّ سَنَاكَ(٢) الْبَدْرُ(٣)، وَالْبَدْرُ زَاهِرٌ(٤) ... وَيَقْفُو(٥) نَدَاكَ(٦) الْبَحْرُ، وَالْبَحْرُ غَامِرُ(٧)
وَهُنِّئْتَ أَيَّامًا تَوَالَىٰ نَشَاطُهَا ... كَمَا تَتَوَالَىٰ فِي الْعُقُودِ الْجَوَاهِرُ

---

(١) جَدِيرٌ: كَخَلِيقٍ وَحَقِيقٍ زِنَةً وَمَعْنًى.

(٢) السَّنَا – بِالتَّحْرِيكِ وَالْقَصْرِ –: الضَّوْءُ.

(٣) الْبَدْرُ – بِالْفَتْحِ –: الْقَمَرُ لَيْلَةَ تَمَامِ اسْتِدَارَتِهِ، وَالْجَمْعُ بُدُورٌ.

(٤) زَاهِرٌ: نَيِّرٌ مُتَلأْلِئٌ، وَبَابُهُ خَضَعَ.

(٥) يَقْفُو – مِنْ بَابِ عَدَا وَسَمَا –: يَتْبَعُ.

(٦) النَّدَىٰ – بِالتَّحْرِيكِ –: الْجُودُ وَالسَّخَاءُ.

(٧) غَامِرٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ يَغْمُرُ مَنْ دَخَلَهُ وَيُغَطِّيهِ، وَقَدْ غَمَرَ الْبَحْرُ – بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ – يَغْمُرُ – بِالضَّمِّ – غَمَارَةً وَغُمُورَةً.

obeikandl.com